دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	إشكالية التلقي في الفن المعماري الجزائري
المصدر:	مجلة جماليات
الناشر:	جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم - مخبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية
المؤلف الرئيسي:	مصطفى، يصرف
مؤلفين آخرين:	كحلي، عمارة(م. مشارك)
المجلد/العدد:	مج6, ع1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2019
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	180 - 200
رقم MD:	1072022
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	إشكالية التلقي، الفن المعماري، الجزائر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1072022

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

مجلة جماليات | المجلد 06 / العـدد: 1 (2019)، ص 180- 200

إشكالية التلقي في الفن المعماري الجزائري

The Problematic of Reception in Algerian Architectural Art

يصرف مصطفى[1]، عَمَّارة كحلي[2]

[1]جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم الجزائر، moustafa.yesref@univ-mosta.dz

[2]جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم الجزائر، ammara.kahli@univ-mosta.dz

مختبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية، جامعة مستغانم

تاريخ الاستلام: 2019/10/18 تاريخ القبول: 2019/11/20 تاريخ النشر: 2019/12/27

الملخص:

تعاني الهوية المعمارية الجزائرية اضطرابات في ضبط معالمها وخوصصة نواحيها التشكيلية الفنية؛ هذا الشرود في تأسيس الهوية الفنية الجزائرية انعكس سلبا على الطابع الجمالي المعماري، وخاصة مع تفاقم متطلبات المجتمع السّكنية، وقد لا يمكن انتظار إلى حين حل عقدة الهوّية الفنية، وبالتالي عمارة مشوّهة خالية من الجماليات البصرية الفنّية المحلّية أو مزيجا بين أنساق دخيلة أخرى، مما ينجرّ عنها مضاعفات في غاية الخطورة قد تهوي بتطوّر اقتصاد المجتمع ككلّ، خاصة إن كان مجتمعا سياحيا بالدرجة الأولى، فخلْق طبقة اجتماعية ترعرعت في تناقضات فنّية تشكيلية يخلق تناقضات نفسية في شخصية الفرد الواحد ومن ثمّ المجتمع ككل، ففي بحثنا هذا نحاول استعراض مدى تأثير التّلقي المعماري على تكوين هوّية المجتمع انطلاقا من نظرية التّلقي وواقع التّلقي المعماري الجزائري.

الكلمات المفتاحية:

العمارة ؛ الهوّية الجزائرية ؛ جمالية التّلقي ؛ الحداثة ؛ الفن المحلي.

Abstract:

The Algerian architectural identity suffers from disturbances in the privatization of its artistic aspects, this stray in the establishment of the Algerian artistic identity reflected negatively on the architectural aesthetic character, especially with the housing crisis, may not be waiting until the

node of the artistic identity, and thus the architecture being free from local visual aesthetics or a combination among other extraneous systems, such a phenomenon creates a risk that may plunge the development of the economy of society as a whole, especially if it is a tourist community in the first place, creating a social class brought up in artistic contradictions that might refer to psychological contradictions in the personality of one individual and then society as a whole. The extent of the impact of architectural receptions on the formation of the identity of society from the theory of reception per se through the reality of architectural receptions in Algerian

Keywords: Architecture; Algerian identity; Architectural reception theory; Aesthetics; Modernity; Local art.

1. مقدمة:

قد ينفرد النص الأدبي عن اللوحة الفنّية أو المنحوتة أو العمارة في المفردات التي تشكلها، إلا أنها تتشابه إلى حد بعيد كون المكان بوصفه صورة ذهنية يُستدل به لمعرفة الشيء، بتحديده في مكان ما وهذا ما قامت عليه تصوّرات الهندسة الإقليدية وفلسفة **كانط** في القرن الثامن عشر باعتبار المكان صورة قبلية توجد في العقل بفعل احتكاك مباشر مع المادّة المشكِّلة للمكان، أو عند **باشلار** في وصفه له (المكان) في مستويين ، معمارية المكان وشاعرية المكان[1] بحيث لا يمكن الفصل بينها، وتتسع شاعرية المكان وتدوم كلما أخَذنا الحنين إليها فهي روح إنسانية يجلبها العمل الفني إلى الوجود[2]. من خلال ما سبق، يمكن أن نربط بعض الاستنتاجات ببعضها لصنع مسلك لتمرير بعض جماليات التّلقي من الفكر الأدبي إلى الفكر الفني التشكيلي باعتبار العمل الأدبي مرحلة تسبق العمل الفني أو تأتي من بعده، تتوسّطها في كل وضعية تصوُّر ذهنيّ مما يسمح لنا بمقاربة بعض الأحكام من النص الأدبي والألماني خاصة، إلى العمل الفنّي التشكيلي المعماري.

نحاول في هذا الطّرح أن نفسّر بعض السلوكيات الفردية أو الاجتماعية في تلقّي الأعمال الفنّية وخاصة المجال المعماري لاتصاله الوثيق بحياتنا اليومية وأن نلفت الانتباه إلى بعض الهفوات التي تحدث في التجربة الفنّية للتشكيل المعماري إما لكثرة المتغيرات في المجتمع الجزائري باعتباره مجتمعا تعاقبت عليه مختلف الحضارات، أو لعدم الانتقال إلى دائرة المتلقّي واحترام ظروفه وأخذها بعين الاعتبار ومنه يمكن طرح التّساؤل التّالي: ما هي العوامل المؤثرة في عملية التّلقي في التّشكيل المعماري؟ وما هي عواقب عدم توافق متغيرات العملية الجمالية؟ وما هي انعكاساتها على الذّوق الجمالي العام؟

2.الفنّ المعماري موضوعا للتّلقي:

بعدما أحدثت مدرسة **كونسطانس** الألمانية ثورة في مجال التّلقي تأثرت بقية المجالات الأخرى، كون التّلقي بمفهومه الجمالي يتوقف عند بُعْدين منفعل وفاعل في آن واحد[3]، وقد يكون الاهتمام بالمنفعل هو من خَلَق فارقا واضحا بين الفلسفة الكلاسيكية وجمالية التّلقي الحديثة، فبات من الواضح عجز نظريّة الفنّ وتاريخه عن فهم العمل الفنّي، فالاعتماد على تفسير مادّي أو مثالي لم يعد بأمر ديناميكي. فتأثير العمل الفنّي وتلقيه يَندمجان في حوار بين ذات حاضرة وخطاب ماض: هذا الخطاب نحو الذّات قد يتلاشى شيئا فشيئا، إلا إذا وُجدت أجوبة لأسئلة يمكن طرحها من قبل الذّات نفسها، أي أنّ التّاريخ يُمكن أن يسرد حقائق أو أحداث لكن لا يجيب عن أسئلة المتلقّي التي تطرح على مقاس نزعته وزاوية رؤيته، بمعنى أنّ العمل الفنّي أو النص الشِعري يتم تفعيله على مستوى الذّات المتلقّية نفسها وإلا سوف نكتفي بما كُتب في أوّل وهلة ولد فيها العمل. ويُمكن الجزم أنّ دوام التّفاعل بين الذّات والعمل الفنّي ضمن التّجربة الجمالية تقتضي أن تتوفّر للموضوع الجمالي خاصّية شكل فنّي والتي تقابلها في النّص الأدبي شاعرية اللّغة في مجال الكتابة [4]، فالشّكل الفنّي وخاصة التّجريدي منه أعمق من أن يَسبح المتلقي بطول قامته فهو يعطي فرصة للغوص

أكثر لبلوغ جوهر الفكرة، لذا نجد أعمال التّجريديين أكثر غموضا وبالتالي أكثر تأويلا وجمالية.

إن ظهور بعض الحركات المعمارية الحديثة بألمانيا لم يكن على سبيل الصّدفة وإنما كان نتيجة مضغ شديد لفكرة تم حَصرها في أذهان منظِّريها أمثال **لوكوبوزييه**[5] Le Corbusier ورابطة العمل الألمانية ومدرسة **الباوهاوس**[6] Bauhaus، فقد كان اعتقادهم الجازم أن العمارة لها الدور الفعّال في تغيير السلوك الاجتماعي[7]، انطلاقا من وعي المصمّم بتركيبة المجتمع ومتطلبات عيش الفرد، كما ذهب البعض أمثال **أدورنو** Theodor W. Adorno و**بنيامين** Walter Benjamin إلى نقد عمارة ما بعد الحداثة والفن عامة في مدى تأثّرها وتأثيرها بالسياسة والاقتصاد؛ هذا الأخذ والرّد بين علم الاجتماع وعلم الاجتماع الفني والفن المعماري، إنما هي نتيجة وجهة نظرهم في أن تكون العمارة عاملا في إحداث تغيير اجتماعي، خاصة مع تطوّرات القرن العشرين، وهذا ما يراه كذلك **غريغوري وأوري** Gregory and Urry من خلال المقدمة لكتابه **العلاقات الاجتماعية والبنى المكانية**[8]، ثم أزمة ما بعد الحداثة عندما اعتبر **هابرماس** Habermas أن العمارة قد فقدت الثقة بدورها، نتيجة "لإثقال العمارة بما فوق طاقتها وتحويلها إلى مجرد أداة للحركة الحديثة". وهو ما يذهب إليه فيلسوف العمارة **ماسيمو كاساري** M.Cacciari الذي يعتقد أن العمارة هي مشروع تقني علمي هدفه ملء الفضاء وغزوه، ويرى أنّ هذا الفعل يسعى إلى – تفريغ المكان–[9] من مضمونه القديم (الرّوحي والمادي) وهذه هي أزمة العمارة المعاصرة في عجزها عن تنظيف المكان من سوابقه الفكرية والمادية[10]. ويُمكن تفسير خلق طراز معماري معاصر في الخليج العربي في زمن وجيز، لكون المنطقة أرضية فارغة معماريا يَسهل تفريغها روحيا، وكون المادة المعمارية المجسدة للرّوح غير مسيطرة على مساحة المكان الجغرافي، بمعنى آخر هي قاعدة اجتماعية سهلة التوجيه، وقد تكُون أزمة التفريغ الرّوحي ناتجة عن إشكالية التّلقي الاجتماعية، وهي إشكالية قد حاول الألمان ترويضها لإعادة بناء برلين بعد الحرب العالمية الثانية[11]، كَون العمارة الحديثة آنذاك لا تمد بصلة بتاريخ ومعتقدات ألمانيا. ويمكن الجزم أن هذا الفعل قد تكرّر في الساحل الإفريقي على يد دول مستعمرة حاولت نقل طرزها بدافع

طمس الهوية، باعتبار أن العمارة أو الفنون ككل لها تأثير مباشر في تلقي الذات لها، ويصعب ترويض الهوية إن تعارض محتوى الفكرة مع مقوّمات الشخصية، أي أن الطّراز المعماري يزدهر في البيئة المناسبة له: فهل هذا هو السّبب وراء تأخّر الفكر المعماري الجزائري ؟ وهل للتّلقي الفني المعماري دور في تغيير التركيبة الاجتماعية؟

3. خصوصيات الفنّ المعماري الجزائري:

ما يميز الجزائر أنها تعاقبت على أرضها مختلف الثّقافات والشعوب منها الفينيقية والرّومانية، والإسلامية والعثمانية، والاسبانية والفرنسية، هذه الخصائص كان لها الأثر الكبير في صنع موزاييك معماري، مما يُؤزّم مهمة تحديد طابع معماري جزائري خاص.

من متطلبات المواطن الجزائري المُلحّة هي السّكن، كونها ضرورة لكل إنسان يريد بناء عائلة بمكان آمن ومريح، ومن بين المعايير التي تميّز طلب الجزائري للسّكن، خصوصية المكان أو حُرمة المكان، فاحترام البعض لبعضهم قاعدة لابد من العمل بها في الأحياء الجزائرية، وهي مقياس مدى عفاف الشّخص وصلاحه كفرد في المجتمع، لذا قد نَجد الشُّرفات تكاد تخلو من سكّانها لقُربها من بعضها البعض، إلا ما كان يطّل على أماكن عمومية أو واجهة طبيعية، كما نجد الحوش طابعا معماريا خالصا في المجتمع الجزائري (ينظر الشكل 01)، فيه تجتمع وتتعاون النّساء على قضاء أمور البيت، تُطلّ فيه أحيانا نوافذ الغرف وتصبّ كلّ المسالك إليه، وهو منفذ للهواء والضوء من الداخل، على شاكلة الطّراز العثماني بالجزائر، وهو أحد الخصائص التي يسعى إلى توفيرها كل من لديه القدرة الشّرائية في اقتناء مساحة أرض كافية لذلك أو قد نجد من يلتزم بالاستقرار في الأرياف لسهولة توفير ذلك، كما يكتفي البعض الآخر بمساحة فوق السّطح مستغلا الطّابق الأرضي كمحلات تجارية أغلبها موجّهة للإيجار كمصدر رزق ثابت، ومع غلاء أسعار الكراء، تَضاعف التّسابق الرّهيب إلى تسخير الطّابق السّفلي للمهام التّجارية (ينظر الشكل 02) مما يجعل الطّوابق العلوية مستقلّة في بعض الأحيان عن التّصميم السّفلي للعمارة.

الشكل 01: فناء داخلي لعمارة جزائرية.

مصدر الصورة:.www.hamoudstudio.com

الشكل 02: صورة لشارع من مدينة قسنطينة

مصدر الصورة:.http://www.altahrironline.com

يظهر التّصميم الدّاخلي في مجمله تصميما تكثر فيه الحواجز البصرية فيه تنفرد الغرف بخصوصياتها فالمطبخ مثلا جناح يرمز إلى حرمة المرأة والمنزل ككلّ، فهو شرف البيت الجزائري.

العمارة الدّينية عمارة مقدّسة قداسة الدّين الإسلامي بناؤها تحت إشراف الدّولة تارة وأعمال خيرية تارة أخرى، هي مزيج بين الطّراز المغربي والأندلسي والعثماني، ومنها ما كادت تُطمس هوّيتُه إبان الاستعمار الفرنسي مثل مسجد **كتشاوة** بالجزائر العاصمة، ومنها ما كان كنائس تحوّلت إلى مساجد بعد الاستقلال بتعديل طفيف فقط، كما تُبنى أحيانا بعض المساجد في القرى والأحياء المجاورة للمدن بصفة ارتجالية سواء من حيث التمويل المّادي أو التصميم ككل (ينظر الشكل 03)، وتُوكل مهمّة التصميم غالبا إلى البَنَّاء نفسه.

الشكل 03: بناء مسجد في أحد القرى الجزائرية بتبرعات مالية

مصدر الصورة: https://web.facebook.com/pg

أوّل ما يلفت انتباه الزّائر إلى المدن الجزائرية السّاحلية سيطرة العمارة الكولونيالية الفرنسية – أو الطّراز الهوسماني[12] أو الأوسماني)ينظر الشكل 04)، فهو طراز معماري أريد به إعادة بناء مخطط مدينة باريس في فترة **نابّوليون الثالث** على يد المعماري **هوسمان**[13]Haussmann، وقد سعت الحكومة الفرنسية آنذاك إلى خلق امتداد فنّي معماري في كل مستعمراتها، ومن بينها الجزائر وقد تلخّصت العمارة الهوسنامية في تشكيلات معمارية متجانسة من دون استقلال المباني عن بعضها البعض، فقد صُمّم هذا الطّراز

بشرفات متشابهة تُطلّ على بعضها البعض وقد اهترأت في بعض الأماكن إلاّ في بعض المدن التي تمّ ترميمها مؤخّرا (ينظر الشكل 05) كما تتخلّلها بعض الفيلات الفخمة التي بُنيت بعناية فائقة وخاصّة مع توفّر الجزائر على مواد بناءٍ مستوردة ذات جودة عالية في الآونة الأخيرة. أمّا العمارة في الجنوب فما زالت محافظة على هوّيتها الصّحراوية في أغلبها، خاصة العمارة المزابية أين يخضع التصميم لتعاليم المذهب الإباضي وتوظيف مواد بسيطة كالطّين والطّوب الأحمر والخشب وجذوع النّخيل وبساطة التّصميم [14]، أو بعض القرى في منطقة القبائل.

الشكل 04: عمارة فرنسية على الطّراز الأوسماني بأحد شوارع مدينة وهران.

مصدر الصورة:.www.youtube.com

الشكل 05: ترميم بنايات فرنسية في الجزائر العاصمة

مصدر الصورة:www.eldjazaironline.net

4. واقع العمارة الجزائرية:

في انعدام دراسات معمّقة ومسبقة في إنجاز مشاريع مستقبليّة كاستحداث مدن جديدة أو ترميم بنايات أو إعادة بنائها وفق متطلّبات المجتمع الجزائري، تتداول من حين إلى آخر بعض مواقع التّواصل الاجتماعي بعض الهفوات في التّصميم المعماري الجزائري على سبيل الفكاهة ، أو تكتب بعض المجلاّت والجرائد مقالات تذكر فيها من حين إلى آخر واقع العمارة في الجزائر بشقّيه، تارة بصورة بشعة تُصوّر كجُرم يُرتكب في حق الهوّية الجزائرية بمزيج من التّذمّر تجاه مستوى التّلقي الفنّي العام، وتارة أخرى بصورة مشرقّة شرف التاريخ العربي الإسلامي ومهد الفتوحات الإسلامية، مرورا ببصمة الاستعمار المعمارية. ولمصداقية البحوث لابدّ من عدم إغفال كل الظروف والعوامل التي دعت إلى ذلك، فبعد مرور عقود من الزمن على بعض المنشآت المعمارية إلا أنها لا تزال مأهولة على الرغم من تداعي أسوارها واهتراء سلالمها، حيث أصبحت تشكّل خطرًا على من يقطنها أو يمرّ بجوارها (ينظر الشكل 06).

فالاكتظاظ الشّديد على المدن ولَّد ضغطا فوق احتمال مساكنها خاصّة بعد النّزوح الهائل من القرى إلى المدن بسبب العشريّة السوداء التي عاشها الشّعب الجزائري خلال فترة التسعينيات، هذا الضّغط جعل التوسّع العمودي للأحياء استراتيجية لإسكان النّازحين من جهة وتزايد النّسمة من جهة أخرى، وعلى الرغم من انتهاج الدّولة الجزائرية طرقا للتّنمية الريفية والدّعم الريفي إلا أنها تبقى ناقصة بالنسبة لضروريات المواطن الجزائري مقارنة بالمدن، كنقص المواصلات والغاز الطبيعي ومحلاّت لائقة تُوفّر المتطلبات اليومية للسكان.

الشكل 06: أحد البنايات القديمة بالجزائر العاصمة.

مصدر الصورة:.elmaouid.com/regional

تبقى العمارة الجزائرية تعاني مشاكل جمالية من حيث تصميمها أو من حيث طرق العناية بها أو أوجه استعمالها، وخاصّة في التّجمعات السّكانية والأحياء الاجتماعية فالاستعمال الفوضوي للشُّرفات قد شوَّه الواجهة الحضرية للمدينة، فالهوائيات المقعّرة أصبحت تبدو وكأنها نبات الفطر الأبيض يلتصق بجدران العمارة (ينظر الشكل 07). وهو ما لفَت انتباه السُّلطات مؤخَّرا (وللأسف بعد فوات الأوان) إلى البحث عن حلول، كالهوائيات المقعّرة الجماعية مثلا، لكن باشتراك شهري أو سنوي، مما حال دون تطبيق هذه الاستراتيجية لغلاء الاشتراك، مما دفع الجهات المختصّة إلى اقحام فاتورة المبلغ مع مبلغ السكنات الجديدة[15].

وبالإضافة إلى مشكل الهوائيات، هناك أسلاك تجفيف الملابس المعلّقة في كل طابق وأمام كلّ نافذة، كون ثقافة العمارة الجماعية ثقافة مستوردة دون سابق تأهيل، دون استيراد فكرة اقتناء غسّالة ملابس بوظيفة تجفيف أو فكرة إنشاء محلات خاصة لذلك، كل هذا الإهمال يمكن تفسيره إلى أنّ العمارة في نظر الجزائري آلة تقوم بدورها بأيّ طريقة كانت، ولو كان ذلك على حساب مظهرها.

الشكل 07: تشوه العمارة الجزائرية بالهوائيات المقعرة

مصدر الصورة: www.alaraby.co.uk

لقد نتج عن غياب سياسة هندسية موحَّدة لإنجاز مشاريع البناء الفردية أو الجماعية، فوضى معمارية عارمة من دون نسق موحَّد ، بحيث تجتمع في العمارة الواحدة عدة أنساق من عدّة طرز مختلفة، أغلبها ليست من نتاج محلي، وذلك بسبب جهل البعض انتماء التّصميم ونوعه، أو لعدم وضع مخطط مسبق لتصميم نهائي للعمارة، إذ تجتمع عدة بنايات متباينة الحجم والنوع في مكان واحد فيَنتُج عن هذا التّباين تذمُّر البعض من تصاميم ما يجاورهم من تصاميم غير مرغوب فيها، مما خلق أحياء راقية يتنافس سكانها من الأثرياء فيما بينهم لبلوغ بناء راق، وأخرى فقيرة تظهر عليها ملامح البؤس وعدم القدرة على إتمام أساسيات العيش بها(ينظر الشكل 08 و09).

الشكل 08: حي الصنوبر بوهران أحد الأحياء الفقيرة.

مصدر الصورة: www.el-massa.com

الشكل 09: من سيدي يحي بالجزائر العاصمة أحد الأحياء الراقية.

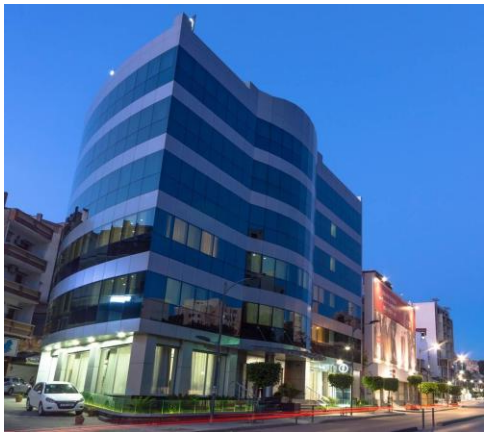

مصدر الصورة:www.echoroukonline.com

6.إشكالية التلقي:

إنّ إشكالية التّلقي المعماري الجزائري تسُوّغها عدة متغيرات أهمّها المعماري نفسه والذي كان لزاما عليه حمل أعباء تبعيّات ما يصمّمه من منشآت معمارية، جاهلا بما سيؤول إليه الوضع الاجتماعي والتربوي الأسري، "فإذا كانت المدينة هي الأثر الجماعي الذي يشترك في كتابته أكثر من مؤلِّف، فإننا في غياب رؤية مبتكرة للعمران الجزائري قد شهدنا موت المؤلِّف الفِعلي، أي المعماري، بانحصار مهمته في تحصيل لقمة العيش. فالإنتاج

المعماري، يحتاج إلى زمن وشرط آخرين أما في هذه الحالة، فسيساهم المعماريّون في نسج مدينة غبية وعارية من الرّموز والتخيّل، كما "يمكننا اعتبار الهُجنة المعمارية التي نتألّم من نتائجها الفوضوية، حصيلة ثقيلة لتهميش التّفكير في المدينة وعمارتها"[16].

هذا الواقع الذي تشهده العمارة الجزائرية، إنما هو نتاج تراكم مخلّفات ثقافية غريبة عن روح المكان، ساعد في احتوائها ممن يخوِّل لهم المنطق والقانون التّصرف فيها، فتكوين شخصية المعمار تنطلق من حيث ينتمي لأن أفكاره وليدة مؤثرات نحتتها عادات وتقاليد وتاريخ المنطقة، ثم تأتي كل محاولاته في استدراك بعض النقائص والتطورات تماشيا مع العصر المعيش، كما أنّ شخصية الإنسان تنحتها الظّروف المحيطة بها منها الأسلوب المعماري. فتلقي الشّكل المعماري إذن يأتي في سلسلة مراحل تتأثر ببعضها البعض فاستجابة المتلقي لأحد أشكال العمارة يولّد لديه رغبة قوية في إعادة تشكيل بيته أو محلّه أو نمط محيط عيشه وبالتالي ثورة في إعادة تنظيم أفكاره [17]. هذا إن كان الشّكل المعماري الذي تأثّر به خاضعا لمقاييس ودراسة محكّمة، فالعنصر الوسيط والواعي في هذه السلسة هو المُنتِج المعماري، الذي يُفترض منه إلقاء أشكال معمارية على كلّ المقاسات تحافظ على مسار الفكر المحلّي، مما يخلق لدينا طابعًا خاصًا منفردًا بذاته وهويته، وعكس ذلك ينتج عنه نسيج معماري فيه تنافر حادّ بين نواحيه التشكيلية، إما في العمارة في حدِّ ذاتها أو بين الهياكل المعمارية فيما بينها، إذ تنعدم فيها وحدة الانتماء مع تنوُّعٍ غير مدروس.

قد يكون الاهتمام بالمظهر الجمالي للعمارة من مقوّمات الشّخصية الرّاقية، إذ تنطبع لدى المتلقي فكرة الثراء والرُّقي عند مشاهدته لأعمال معمارية راقية والعكس صحيح، كان هذا الحكم نتيجة مقدمات واستنتاجات جزئية تترتبُ عنها خلاصة ثم حكم نهائي؛ بالمقابل يترتَّب عن إخفاقات المعماري في تصاميمه من النَّاحية الجمالية أو الوظيفية، تحصيل أحكام

سلبية عن نِتاج معماريٍّ غير مدروس اجتماعيا أو نفسيا أو فنيا، هذه الظروف باستطاعتها خلق فكرٍ متطرّفٍ اجتماعيا من دون ذوق جمالي فني[18].

في نهاية القرن التّاسع عشر ظهر مصطلح العمارة النَّاطقة[19] وهي أن يعبِّر الشَّكل عن الوظيفة أي أن يخمِّن المتلقي ما قد يكون وراء الجدران أو النِّظام القائم داخل هذا المبنى أو الخدمات التي قد يقدمها أو الغاية من إنشائها. ما هي إذن توقّعات المتلقّي عند مشاهدته لتصميم معماري خالٍ من المقومات الجمالية البصرية؟، طبعا سيتبادر إلى ذهنه كل ما هو سلبي عن الحياة الاجتماعية، فيتولّد لديه قابلية لردود فعل عنيفة أو متطرّفة. وما قد يزيد الوضع تأزّما استيراد بعض المعايير الجمالية للبناء المعماري جاهزة دون إخضاعها للضّوابط الفكرية والأخلاقية والدّينية لبنية المجتمع، علمًا أن المجتمع الجزائري مجتمع أغلبه مضبوط بتقاليده وعاداته. فمثلا البناءات الشفّافة المزججة لها وقع جميل وانطباع جيد في نفسية المتلقي فهي تعطي إحساسا بالخفّة والصراحة والعصرنة والذّكاء، إلاّ أنّها قد لا تتوافق مع بنية المجتمع الجزائري خاصّة كمبان سكنية، بالمقابل هي نمط معتمد في أوساط المجتمعات الغربية لبلوغ بناء مدينة أفضل ولا حدود فيها لأوهام عقائدية أو دينية، على حدِّ قول الروائي الروسي **نيكولاي تشير نيشيفسكي** (1828–1889) Nikolaï Tchernychevski حول فكرة البناء في روايته **(ما العمل)** وخلق مجتمع منفتح على العامّة[20].

من خلال ما سبق يظهر أنّ اهتمامنا انصبّ على المتلقي أو الجمهور لأنّه على قدر وعيه بالجمال يساعد في خلقه ويُسعد الآخرين به، كما أن التّفاعل بين العمل الفني والقارئ (المتلقي) من أهمّ المفاهيم التي ركّزت عليها نظرية التّلقي. فمن المجحف في نظر **فولفغانغ إيزر**Wolfgang Iser[21] أن نصبّ اهتمامنا على العمل الفنّي بل وأيضا بمعيار مساوٍ بالأفعال المتضمّنة داخل الاستجابة الجمالية للعمل الفنّي[22]. ذلك أنّ المجتمع الجزائري مجتمع هجين بين أفكارٍ اختارها بنفسه وأفكار فُرضت عليه إمّا بدافع الحاجة أو

مرغما، فخلال نموِّه كمجتمع شهد عدة قطائع أخَّرته زمنيا وحضاريا، تشرَّد إثرها بين أفكار أصلية ودخيلة، ممّا صعَّب عليه مهمَّة تشكيل طابع معماري محليّ خاص، لكون العمارة ترجمة لأفكار ذهنية في قوالب محسوسة تفوق أحجامنا كأجساد بشرية تحتوينا، ونأوي إليها ونحتمي بها ونستعين بها. فعلى غرار المجتمعات الأخرى، فإنّ العمارة الجزائرية لديها ضوابط عديدة تراوحت بين البحث عن الهوّية ومسايرة العصرنة، وكل محاولاتها في وضع ملامح جزائرية تُلغى لعدم التّأسيس: أي لا جذور لها في الجزائر العميقة أو لتعارضها مع بعضها البعض، مما يجعل الموزاييك المعماري من ملامح الهوّية المعمارية الجزائرية وبالتالي هوّية اجتماعية مترامية الأطراف.

7. الخلاصة:

يمكن الجزم أن غرس أحجام معماريّة في فضاء جغرافي، يُماثلُ غرس أعضاء بشريّة أو حَقْنٍ بغرض الاستشفاء في جسم إنسان، فإن توافق الجسم مع العضو أو المحلول شُفي وتعافى، وإن تعارض معه رُفِض وتعفّن، وتكون بالتالي عملية فاشلة. إنّ فشل العملية المعمارية تقتسمها أطراف عدة أوّلها المعماري، وهو حلقة الوصل بين العمارة والمتلقي كونه هو العامل الواعي في السلسلة، ثم المتلقّي والذي هو عرضة لتيارات داخلية وخارجية: فالداخلية نفسية تجمع بين الذّوق الجمالي والعقيدة والانتماء، وخارجية كالظروف الاجتماعية والمناخية المحيطة به ومتطلبات عيشه، ثم طرف ثالث وهو العامل الاقتصادي ومدى تطوّر المواد والخامات المستعملة. ومنه، فإنّ تضافر هذه العوامل وتعاونها يخلق تشكيلا معماريا وليد بيئته، مشبعاً بقيم جمالية فنّية، لها جذور ضاربة في روح المكان، مكوِّنة نمطا معماريا مميزا وأيّ تغيير أو تطوير معماري بدون وعي ودراسة مسبقة مستقبلية تنعكس سلبا على الإنسان والمجتمع، كون العمارة هي الوعاء الحامل داخلَها أفراد الأسرة (ينظر الشكل 10).

الشكل 10 . مخطط حل إشكالية التلقي المعماري وإنتاج معمار محلي: (من اعداد الباحث).

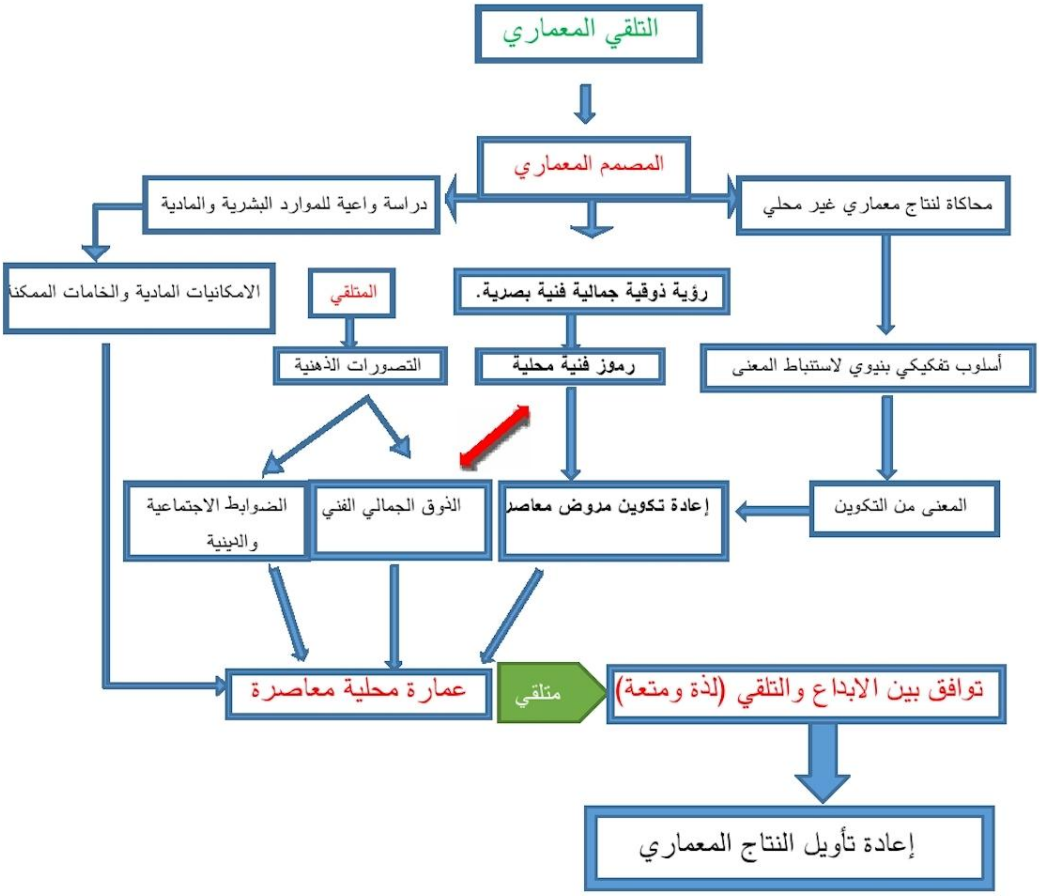

لا تدّعي هذه الورقة البحثية حول الواقع المعماري الجزائري، تغطية مظاهر التّلقي المعماري في الجزائر، نظرا لتعدّد المتغيرات التي توقفنا عند أبرزها ألا وهي: العمارة ، والمعماري والمتلقي. فجلوس المعماري وراء شاشة رقمية وبرنامج افتراضي وسباحة حرة في أحواض الانترنيت بحثا عن أنساق ومستجدات معمارية جديدة لغرسها في أرضية من غير مناخها، قد يولّد تنافرا وتعارضا حادًا، فكان من الضّروري دراسة اجتماعية ونفسية لمن نريد إقحامه بين هذه المفردات المعمارية أو على الأقل يكفي أن يتشرّب المعماري بشيء من ذكاء المتلقّي وأن يتشبّع بفكره وعاداته وتقاليده، بمعنى آخر أن يكون المعماري جزءا من

حيّز المتلقي جسدا وروحا. هذا لا يعني أن نغلق سبل التفتّح على ثقافات معمارية أخرى بل لابد من ترويضٍ على مقاس فكرنا المحليّ والانفتاح على تكنولوجيات وظيفية واستيراد الخامات وطرق توظيفها مع إنتاج تكوينات لها معنى عقائدي محلي، كما لا نستطيع وضع هذه المعايير إلاّ إذا انصبّ اهتمامنا على المتلقّي وإلا سنَتيه وسط زحمة ثقافية لا نعرف منافذها وعواقبها المستقبلية والواقع الجزائري المعيش خير دليل على ذلك.

كما لا يمكن إغفال بعض السّياسات التي نهجها المستعمر في وقت مضى إما متعمدا أو غير متعمد، متعمّدا كونه كان يعتبر الجزائر فرنسية ولم يفكر يوما في التّخلي عنها، أو غير متعمّد كونه ترك طرازا معماريا بروح فرنسية بعد خروجه من أرض الوطن، إما من خلال اتفاقيات أو من خلال قوانين التسيير العقاري المحلي. وهذا لا يعني أنّنا نرفض الفن المعماري الغربي الحديث فهو فن له جماليّاته لا يمكن نكرانها، لقيامه على دراسات حسابية وفلسفية قيّمة، ثم أنّ هذه القيم الجمالية في العمارة الغربية لها ما تقتسمه من خصائص والعمارة الإسلامية كالزخرفة والأقواس أو حتى الأعمدة والقباب، ففي كلّ الأحوال ذكاؤنا الفني ربّما تقبّل بعض النواحي التّشكيلية المعمارية على مرّ الزّمن ونحن الآن نعيش ذهابا إيابا بين جمالية العمارة الأوسمانية ورمزية المستعمر الفرنسي فما السبيل إلى التّوفيق بين أخلاقيات الفنّ والنّزعة القومية لبناء هوّية معمارية محلية؟

الهوامش:

1-غادة الإمام، جاستون باشلار، جماليات الصورة، بيروت، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، 2010، ص.291.

2- المرجع نفسه، ص ص.290-291.

3- هانس روبيرت ياوس، جمالية التلقي- من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، رشيد بنحدو، الجزائر العاصمة، منشورات الاختلاف، ط.1، 1437هـ - 2016م، ص.110.

4- المرجع نفسه، ص.133.

5- لوكوربوزييه: هو شارل إدوارد جينيريه المعروف باسم لوكوربوزييه فرنسي سويسري الأصل (1887-1965) أشهر من دعوا إلى الوظيفية في أوروبا، أظهر أفكاره من خلال التصميم المعماري، وظف الكتل الخالصة كالمكعب والهرم والأسطوانة والكرة مجمعة تحت الضوء على أساس أنها أجمل في هذه الحالة. ينظر: محمد محمود عويضة، تطور الفكر المعماري في القرن العشرين، بيروت، دار النهضة العربية، ص. 65.

6-الباوهاوس: كلمة معناها بيت البناء House of building تزعمت هذه المدرسة حركة التطور العلمي الفني من مبادئها خلط العمارة بالفن والتكنيك الصناعي، ويقصد بها المنزل المعماري وهو معهد التدريس المعماري بألمانيا تأسس ما بين 1919 و1933، استندت إدارة هذه المدرسة إلى وولتر جروبيوس Gropius Walter أي بعد الحرب العالمية الأولى. ينظر: تطور الفكر المعماري في القرن العشرين، مرجع سابق، ص.43.

7- المرجع نفسه، ص. 65.

8- ديفيد انجليز ووجون هيغسون، سوسيولوجيا الفن طرق للرؤية، ليلى الموسوي، الكويت، عالم المعرفة، 2007، ص. 284.

9- تفريغ المكان: تصعب ترجمة مصطلح ent-ortung الذي قدمه الفيلسوف والسياسي الإيطالي **ماسيمو كاسياري** في كلمة واحدة، إذ يحمل معاني عميقة تشير إلى إزالة تفرد المكان، وتفريغه من سماته الطبيعية ومن عمارته وناسه وروحه. ينظر: سوسيولوجيا الفن- طرق للرؤية، ص. 285.

10- المرجع نفسه، ص. 285.

11- المرجع نفسه، ص. 286.

12-Bernard Marchand ,Le financement des travaux d'Haussmann : un exemple pour les pays émergents , 05/04/2011 , http://www-ohp.univ-paris1.fr, consulté le : 24/11/2019.

13- هوسمان: **جورج أوجين هوسمان** Georges Eugène Haussmann (1809-1891) ، مهندس وسياسي فرنسي معروف وضع مخطط باريس في القرن التاسع عشر والمُسمى بـ "المخطط الهوسماني"، كان محافظا لمنطقة نهر السين من 1853 إلى 1870. ينظر الموقع الالكتروني السابق.

14- بالحاج بن بنوح معروف، العمارة الإسلامية- مساجد بني مزاب ومصلياته الجنائزية، المحمدية- الجزائر، دار قرطبة، ط.1، 1428هـ- 2007م، ص.268.

15- بلقاسم عجاج، القضاء على الهوائيات المقعرة في ثلاث سنوات،

www.echoroukonline.com،2012/12/02، تاريخ الاطلاع عليه: 2018./10/02

16- عبد الرزاق بوكبة، العمارة الجزائرية تشييد المساكن الحديثة شوّه الخصوصية الثقافية، العربي الجديد،2016/05/22، www.alaraby.co.uk، تاريخ الاطلاع عليه: 2018/10/03.

17- محمود البسيوني، تربية الذوق الجمالي، القاهرة، دار الكتاب الحديث، ط.1، 1436هـ- 2015م، ص ص.50-51.

18- بيلميسوس حسن، أعمال الشغب الحضرية: متطلبات إعلامية، ضمن كتاب جماعي: مدن وعمارة واتصال، تحت اشراف ثيري باكو، تر: بشير زندال، بيروت /باريس، منشورات ضفاف/ وزارة التعليم، ط.1، 2016، ص ص.50-53.

19- ثييري باكو، المخالطة بوصفها نوعا من أنواع التواصل، ضمن كتاب جماعي: مدن وعمارة واتصال تحت إشراف: ثيري باكو، وبشير زندال، منشورات ضفاف، الرياض، 2016، ص ص.69-79.

20- المرجع نفسه ، ص.79.

21- إيزر فولفغانغ:Wolfgang Iser ولد سنة 1926 بألمانيا درس اللغة الأنجليزية والفلسفة واللغة الألمانية اشتغل بالتدريس في عدة جامعات داخل ألمانيا وخارجها، عضو في بأكاديمية **هيدلبورغ** للفنون والعلوم، رئيس اللجنة المخططة لجامعة **كونسطانس** له عدة مؤلفات: القارئ الضمني ، فعل القراءة، التوقع، التخييلي والخيالي من منظور الأنطربولوجية الأدبية. ينظر: فولفغانغ إيزر، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، حميد الحمداني، الجلالي الكدية، المغرب -فاس، مكتبة المناهل، 1995، ص.9.

22- المسعود قاسم، جمالية التلقي المرجعيات المعرفية والآليات الإجرائية، إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث، 2019، ص.46.

قائمة المصادر والمراجع:

- الإمام (غادة)، جاستون باشلار، جماليات الصورة، بيروت، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2010.

- البسيوني (محمود)، تربية الذوق الجمالي، القاهرة، دار الكتاب الحديث، الطبعة الأولى، 1436هـ-2015م.

-انجليز (ديفيد) وهيغسون (جون)، سوسيولوجيا الفن طرق للرؤية، ليلى الموسوي، الكويت، عالم المعرفة، 2007.

- بالحاج بن بنوح (معروف)، العمارة الإسلامية- مساجد بني مزاب ومصلياته الجنائزية، المحمدية- الجزائر، دار قرطبة، الطبعة الأولى، 1428هـ- 2007م.

- باكو ثيري وآخرون، مدن وعمارة واتصال، بشير زندال، بيروت /باريس، منشورات ضفاف/ الرياض، وزارة التعليم، ط.1، 2016.

-عويضة (محمد محمود)، تطور الفكر المعماري في القرن العشرين، دار النهضة العربية، بيروت،1984.

- فولفغانغ (إيزر)، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، حميد الحمداني، الجلالي الكدية، المغرب -فاس-، مكتبة المناهل،1995.

-المسعود (قاسم)، جمالية التلقي المرجعيات المعرفية والآليات الإجرائية، إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث، 2019.

- ياوس (هانس روبيرت)، جمالية التلقي- من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، رشيد بنحدو، الجزائر العاصمة، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 1437هـ - 2016م.

المقالات الالكترونية:

-بوكبة (عبد الرزاق)، العمارة الجزائرية تشييد المساكن الحديثة شوّه الخصوصية الثقافية، العربي الجديد،2016/05/22، www.alaraby.co.uk، 2018/10/03.

-عجاج (بلقاسم)،القضاء على الهوائيات المقعرة في ثلاث سنوات،2012/12/02،
www.echoroukonline.com، 2018/10/02.

المصادر الأجنبية:

- Bernard (Marchand), Le financement des travaux d'Haussmann : un exemple pour les pays émergents , 05/04/2011, http://www-ohp.univ-paris1.fr, consulté le 24/11/2019.